المدرسة الألمانية للاستشراق
واقعٌ ضامر لماضٍ متألّق
دراسة مع ترجمة مقدمةً فلوجل لكتاب
«المدارس النحوية عند العرب»

أسامة الشحماني*

انجذب الغربيون لسبل الوقوف على القوة الروحية للشرق وشغفوا بمعارف العقل الشرقي لدرجة مثيرة، ولا نكون مبالغين إذا زعمنا: أنه قلَّما نجد حضارة نالت اهتمام الغربيين وظفرت بعنايتهم كالحضارة العربية على اختلاف ما مرت به من حقب وتجلَّى على مسارحها من حراك ثقافي وسياسي وفكري واجتماعي. وقد انصبت جهود علمية كبيرة على تدارس مفهوم الاستشراق بواعثه ومحفزاته حتى بات الاستشراق بذاته، بصرف النظر عن مراحله وأطواره ودوافعه، من الظواهر الفكرية الكبرى وبالغة الأثر في التواصل الحثيث باتجاه الدفع بعجلة البحث العلمي الى الأمام، لاسيما في مجالات تحقيق المخطوطات والفهرسة والتقويم، حيث لا يمكن للمطلع أن يتغاضى عن فضل المستشرقين فيها ودورهم في التأثير بمسارات الثقافة العربية.

اتفقت ظروف تاريخية كثيرة على الاهتمام الكبير الذي أَوْلاه الألمان على وجه الخصوص بالأدب والفكر العربيين، وقد اختلف الباحثون في متابعة آثار الموجة الاستشراقية الألمانية والتعمق في تأصيل أسبابها وترجيح أكثرها اقتراباً من الموضوعية. ولو تتبَّع الباحث آراء العرب جميعاً بالصبغة الألمانية للاستشراق لوجد الأقرب للواقعية من بينها هو ما ذهب إليه رهط من الباحثين الذين ربطوا المدرسة الألمانية للاستشراق بدائرة التبشير وأعادوا نضج حلقاتها وتميّز ما تركته من بصمات في تاريخ الاستشراق لسلسة الحروب الصليبية وإدراك الألمان

لتفوق الحضارة العربية وحاجتهم الماسة لها بوصفها مباءة علمية كفيلة بسدّ ما لهم من ثغرات معرفية. يقول نجيب العقيقي إن جذور اتصال ألمانيا بالشرق تعود إلى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩) وعودة حجَّاجها من الأراضي المقدسة ووصفهم لها ونقلهم عنها شيئاً من حضارتها، وإنَّ أوّل ألماني تعلَّم العربية وعني بدراستها هو ألبرت الكبير Albert le Grand (١٢٠٦-١٢٨٠) وعنه أخذ توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) حتى قيل «لولا ألبرت لما وجد توما»، وما أن توثقت عرى اتصال ألمانيا بالشرق سياسياً وتجارياً حتى تشبهت بالنمسا، بوصف الأخيرة صاحبة سبق بالعلاقة مع الشرق، فأنشأت على غرارها مدرسة للغات الشرقية في برلين العام ١٨٨٧ وجمعت لها المخطوطات[١]. إلا إنَّ مدارس الاستشراق في ألمانيا، على الرغم من عمق اهتمامها باللغة العربية، بقيت تدور في فلك اللاهوت ولم تتمكن من الانعتاق من هيمنته والافلات إلى فضاءات الثقافة العامة وميادينها الرحبة إلا بفضل مجموعة من العلماء الذين دفعوا بعجلة البحث الى الأمام وفي مقدمتهم المستشرق الألماني الكبير فلايشر[٢] Heinrich Leberecht Fleischer، الذي شقَّ طريقاً جديدة في التأسيس لدراسة علوم اللغة العربية كدرس مستقل واضعاً حجر الأساس لدراسة فقه اللغة العربية في واحدة من أقدم الجامعات الألمانية وهي جامعة لايبزك، وهي صرح علمي عريق شيّد مطلع القرن الخامس عشر وتميَّز بمبدأ التنوع في دراسة اللغات فيلولوجياً وتعتبر كلية علوم اللغة Philologische Fakultät في هذه الجامعة إحدى أهم المؤسسات العلمية التي شكَّلت نقطة جذب واستقطاب للمستشرقين، واحتضنت منذ القرن الثامن عشر بحوثاً بالغة الأهمية في دراسة اللغة والآداب العربية. دارت في هذه المؤسسة العلمية رحى البحث بمناهج علمية جادة تقوم بالدرجة الأولى على ترجمة وجمع وتحقيق المخطوطات والعناية بالتراث العربي الإسلامي. ولقد أحصى كثير من الباحثين نشاط المستشرقين الألمان وأرّخوا لمسيرة ما قدّموه من دراسات في اللغة العربية في موسوعات ومؤلفات لا مجال للحديث عنها في هذا الموضع. إلا أنَّ ما نريد الإشارة إليه هنا هو أنَّ معظم دارسي الاستشراق مرّوا على ذكر المستشرق الألماني الكبير غوستاف فلوجل Gustav Leberecht Flügel (١٨٠٢ - ١٨٧٠)، بالوقوف على قيمة مؤلفاته ولاسيما كتابه، الذي ارتبط باسمه، «المدارس النحوية عند العرب»[٣] من جهة كونه اتبع فيه منهجاً جديداً

قلَّما نجد حضارة نالت اهتمام الغربيين وظفرت بعنايتهم كالحضارة العربية على اختلاف ما مرت به من حقب وتجلَّى على مسارحها من حراك ثقافي وسياسي وفكري واجتماعي.

ومبتكـراً لم يدر في خلد أحدٍ مـن قبل، ممن عني ببحث الـدرس النحـوي العربـي، وهـو تقسـيم النحـاة العرب إلى مـدارس. ويجدر بنـا هنا، وقبل أن ننظـر في تصيف فلوجل للممارسـات اللغوية والنحويـة إلى مدراس، أن نعرِّج باختصار على أهـّم مراحل حياة هذا العالم، الذي يعـدُّ مـن سـدنة التـراث العربي بيـن المستشـرقين. ولد فلوجـل في باوتسـن Bautzen بألمانيـا، ودرس اللغات الشرقية في لايبزك على مشاهير علمائها، وأجيز بها العام ١٨٢٤. ثم توجَّه إلى فيينا لدراسـة المخطوطات العربية فـي المجموعة التـي تضمّها مكتبة فون همّر بورغشـتال Von Hammer -Purgstall. بعدهـا سـافر الـى باريـس، ليقضـي فيهـا بعـض الوقـت بيـن المكتبـة الإمبراطورية وحضور دروس المستشـرق الكبير دي ساسي، فضلاً عن انكبابـه علـى المخطوطـات الشـرقية الموجـودة فـي المكتبـة الوطنيـة. رجـع إلى ألمانيـا العـام ١٨٣٠ فعيـن أسـتاذا للّغـات الشـرقية فـي المعهـد الملكـي. وبعد أن غـادر ألمانيا مرة أخرى أقـام فلوجل مدة طويلة في قصر المستشـرق النمسـاوي المعروف فون همّر، ثمَّ عهد إليه وضع فهرسـة للمخطوطات العربية والفارسـية والتركية الموجـودة في المكتبة الإمبراطوريـة في فيينا، فأتمّ العام ١٨٦٨ تصنيـف مئات المخطوطـات في ثلاثة مجلدات فـاق عـدد صفحاتهـا الألفين صفحـة. يعـدُّ فلوجل من العلمـاء الأفذاذ، الذين تميّزوا بقـدرة كبيرة على التوجيه والتخريـج التاريخـي، وهـو مـن أخصب المستشـرقين إنتاجاً فـي الكتابة والتحقيق والنشـر وأغزرهم. لقد قدَّم أعمـالاً ضخمة يصعب على مراكـز بحثية كاملة أن تقوم بها في الوقت الحاضر على الرغم اسـتحالة المقارنة بين ما هو متاح الآن وما عاشه فلوجل آنذاك. ومن بين أهمّ ما يمكن ذكره هنا من أعماله كتابه «تاريخ العرب حتى سقوط بغداد» الواقع في ثلاثـة مجلدات، ثمَّ تحقيقه لمخطوطة كتاب «كشـف الظنـون» لحاجـي خليفة متناً مـع ترجمة لاتينية وفهارس وملاحق في سـبعة مجلدات، قضى فيها ثلاثة عشـر عاماً في البحث والترحال بين أشهر مكتبات أوروبـا. وقام فلوجل أيضاً في العـام ١٨٣٤ بطبع النص العربـي للقرآن الكريم في لايبزك، هذه الطبعة كانت وما زالت معتمدة في الدراسـات والبحـوث الأكاديميـة لـدى المستشـرقين. وقضـى هـذا الباحـث المثابـر ربـع قـرن في جمـع مخطوطات كتاب الفهرسـت لابـن النديـم من مكتبـات فيينـا وباريـس وليـدن بهولنـدا، وأنجـز جـزءاً كبيراً من تحقيقه لكنـه توفي قبل أن يدرك إتمامه، فتولاه رويدجـر Rödiger وأوغسـت مولـلر August Müller ونشراه في لايبزك العام ١٨٧١، ثمَّ ألحقا به ذيلاً (لايبزك ١٨٧٢) تضمَّـن التفاسـير والتعليقـات والاسـتدراكات بالعربيـة والألمانية وختماه بفهرس الأعلام، وبعد مرور ١٧ عامـاً عُثـر علـى جزء سـاقط من مخطوطـة الفهرس فـي مكتبـة مخطوطـات جامعـة ليـدن فنشـر فـي مجلة

كلَّ ما عمل من فهارس للقرآن الكريم بعد فهرس فلوجل هي عيال عليه، ولم تصل الى درجته من الدقة

الجمعية الشرقية الألمانية، Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.[٤]

شغلت كتابات فلوجل وبحوثه العلمية الرصينة حيِّزاً كبيراً في مكتبة الاستشراق لأنَّه كتب في شتى موضوعات اللغة والثقافة العربية، وكان فيها مثالاً للمنهجية. لقد عكف قرابة العقدين من الزمن لتتبع سور القرآن الكريم وإحصائها في جداول نظمها على أساس التقسيم اللغوي المعروف في اللغة العربية (أسم وفعل وحرف) وقد أثمرت جهوده ودقة تقسيماته عن كتابه الرائد (نجوم الفرقان في أطراف القرآن)[٥]، إلا أنَّ هذا الكتاب لم يلق ما يستحقه من العناية والإقبال من قبل الباحثين العرب، لأسباب هي في عرف بعض الباحثين مازالت ترزح تحت وطأة الغموض، ولذا فهي بحاجة للمراجعة والتمحيص للكشف عن المحفِّز الحقيقي الكامن وراء تجاهل ما بذله نفرٌ من المستشرقين من جهود كبيرة للاقتراب من الثقافة العربية، التي أثارتهم بكل ما لها من قضايا شتى وفي مقدمتها القرآن الكريم. ولعل دأب الألمان على الاشتغال على القرآن الكريم هو من أهم العوامل التي منحتهم ريادة ومكانة خاصة في تاريخ الاستشراق. لقد سبق فلوجل العلماء العرب في فهرسة القرآن الكريم، ويقول عبد الرحمن بدوي في هذا السياق أن كلَّ ما عمل من فهارس للقرآن الكريم بعد فهرس فلوجل هي عيال عليه، ولم تصل الى درجته من الدقة، وقد أسدى فلوجل بهذا الفهرس خدمة جليلة للجميع من الباحثين وعامة الناس[٦]. أمّا المحقق الفلسطيني عبد الكريم الحشاش فقد أفصح عمّا أعرض عنه سواه إذ ذهب الى أنَّ الكاتب المصري محمد فؤاد عبد الباقي عثر على كتاب فلوجل وقام بالسطو عليه «فغيّر عنوانه وجعل له العنوان: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) مدّعياً أنّه وجد بضعاً وثلاثين كلمة لم يضعها فلوجل في مكانها الصحيح، وهل تجيز له هذه الهنات إن صحّت أن يدّعي الكتاب بأسره؟! لماذا لم يحذّره علماء الأزهر، ويطلبوا منه أن يضع ملاحظاته على حاشية كتاب (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) أو في الهوامش، ويطبع بعنوانه الأصلي، فهو في أحسن الأحوال يكون قد حقّق كتاب فلوجل لا أن ينسفه ويخفي ملامحه ويدّعيه»[٧] ومصداق ما ذهب إليه الحشاش، كما أحسب، هو أن محمد فؤاد عبد الباقي لم يكن أميناً على النص وإنما قام بتصيّد الهفوات التي وقع بها فلوجل وهي قليلة جداً بالمقارنة وعظمة الاقدام على هكذا مصنَّف، وكثر ما تعلَّق أغلبها باشتقاق المفردة، فضلاً عن ادراجه لبعض الأخطاء المطبعية التي لا يكون

أنَّ أية نظرة نقدية مقارنة للنسخة الأصلية لكتاب فلوجل) نجوم الفرقان في أطراف القرآن(ولكتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) تكشف وبوضوح عن كون الأخير نسخة عن الاوَّل تجاوز فيها عبد الباقي ما أصاب النص الأصلي من هفوات بسيطة وأمورٍ جانبية لا تمس صلب الكتاب

المؤلف مسؤولاً عنها، متناسياً أن فلوجل تصدَّى لهذا العمل الضخم على الرغم من كون العربية ليست لغته الأم. ولا يسعنا هنا إلا أن نثبِّت السبق الزمني لفلوجل في هذا المجال، كونه أوَّل من قام بفهرسة القرآن فهرسة معجمية. ونحن نتفق مع ما التفت إليه الحشاش من كشف وتشخيص لا نجده قد جانب الصواب، لإننا راجعنا الكتابين بدقة ونرى أنَّ أية نظرة نقدية مقارنة للنسخة الأصلية لكتاب فلوجل (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) ولكتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) تكشف وبوضوح عن كون الأخير نسخة عن الاوَّل تجاوز فيها عبد الباقي ما أصاب النص الأصلي من هفوات بسيطة وأمورٍ جانبية لا تمس صلب الكتاب. أما ما ورد في مقدمة المعجم المفهرس من إشارة قال فيها عبد الباقي «ما أقدمت على وضعه وإرهاق نفسي وإضناء جسمي وإنهاك قواي في عمله، والدؤوب في ترتيبه وتنسيقه، وإعادة مراجعته مرّات متعدّدات، إلاّ لما أيقنت من شدّة الحاجة إليه، وفقدان ما يسدّ مسدّه ممّا ألف في بابه. وإذ كان خير ما أُلّف وأكثره استيعاباً في هذا الفنّ دون منازع ولا معارض هو كتاب (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) لمؤلّفه المستشرق فلوجل الألماني الذي طُبع لأوّل مرّة عام ١٨٤٢ ميلاديّة، فقد اعتضدت به وجعلته أساساً لمعجمي. ولمّا أجمعت العزم على ذلك، راجعت معجم فلوجل مادّة مادّة على معاجم اللغة وتفاسير الأئمّة اللغويين، وناقشت موادّه، حتّى رجعتُ كلّ مادّة إلى بابها، ولم أقنع من نفسي بذلك، بل اخترت من أجلّة العلماء المغايير، وصفوة الأصدقاء المخلصين لجنة عرضت عليهم فيها موادّه مادّة مادّة، فما كان بادي الصحّة أقرّوه، وما خفي عليهم وجه الصواب فيه فزعنا إلى المعاجم نستوضحها، وإلى التفاسير نستلهمها. فلئن كان كتاب من عند غير الله له أوفر نصيب من الصحّة لقد كان هذا الكتاب[٨].»

أمَّا كتابه «المدارس النحوية عند العرب» فهو عملٌ مرجعي يفصح عنوانه عن مضمونه، وقد أسهم في إخراج أهم أوعية اللغة العربية بوصفها ظاهرة تمثلت داخلها خصائص المجتمع العربي ونظمه، وخصوصاً على مستوى الكشف عن العلاقة بين شخصية البدوي وسلوكه اللغوي

فلم تكن لتبرر الغبن الذي ألحقه عبد الباقي بالجهد والحصيلة المعرفية التي قدَّمها فلوجل، وهي لدليل آخر على إدانة عبد الباقي وليس على أمانته العلمية.

أمَّا كتابه «المدارس النحوية عند العرب» فهو عملٌ مرجعي يفصح عنوانه عن مضمونه، وقد أسهم في إخراج أهم أوعية اللغة العربية بوصفها ظاهرة تمثلت داخلها خصائص المجتمع العربي ونظمه، وخصوصاً على مستوى الكشف عن العلاقة بين شخصية البدوي وسلوكه اللغوي. ظهر فلوجل في هذا الكتاب القيِّم باحثاً مخلصاً في خدمة اللغة العربية ذا بصيرة نافذة تقود

لفهم الدرس النحوي العربي بوصفه وعاءً يفصحُ عن إدراك المنابع الأولى لمناهج البحث اللغوي في العقل العربي.

إنَّ ما لم يهتمَّ أحدٌ بتدوينه، أو الإقدام على تثبيته، في حدود ما نعلم، هو أنَّ استعمال اصطلاح المدرسة النحوية لدى الباحثين في تاريخ النحو العربي لم يكن معروفاً قبل غوستاف فلوجل، فهو أوَّل من قعَّدَ لهُ في كتابه «المدارس النحوية عند العرب». ولعل اتفاق جملة من الأسباب، أهمها بقاء هذا الكتاب من دون ترجمة عربية أدى الى وقع الكثير من الباحثين العرب في خطأ الاعتقاد بأن أول من استعمل كلمة المدرسة النحوية هو بروكلمان، في كتابه «تاريخ الأدب العربي» متبعاً في ذلك «جوتولد فايل» في مقدمة كتاب الإنصاف[٩]. على الرغم من أن كتاب فلوجل طبع في العام ١٨٦٢، أي قبل ولادة بروكلمان بأربع سنوات. لقد جعل فلوجل لمفهوم المدرسة النحوية ذاتية وكينونة اصطلاحية سرعان ما تبلورت علمياً ليتوسع بها الباحثون ويسهبوا في المفهوم والمساحة العلمية التي تأسست لها. إمَّا مفردة مدرسة فهي، وإن كانت قد ظهرت بشكل محدود في عدد من التصنيفات السابقة على فلوجل، بقيت في حدود ضيقة ولم تتخذ الشكل الدلالي الذي رسمه لها فلوجل حتى استحسنها الباحثون وبات ظهورها نهاية لطور التصنيفات التي اتبعها القدماء وهي ما قام إمّا على تقسيم النحويين إلى مذاهب ونسبهم لمدنهم وأمصارهم (نحاة البصرة، نحاة الكوفة)، كما فعل الزبيدي في كتابه «طبقات النحويين واللغوين» ومن حذا حذوه، أو بالنظر لما للنحوي من سبق زمني ومنزلة في العلم والرواية كما فعل أبو الطيب اللغوي في كتابه «مراتب النحويين» ومن اتبع منهجه بعده. ويشير لذلك د. ابراهيم السامرائي في قوله «لم يطلق القدماء على 'مسائل الخلاف' في النحو القديم كلمة 'مدرسة'، فلم يؤثر عنهم مصطلح 'المدرسة البصرية' ولا مصطلح «المدرسة الكوفية ولا 'مدرسة بغداد' ولكننا كنا نقرأ من قولهم: مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين».[١٠]

إنَّ ما لم يهتمَّ أحدٌ بتدوينه، أو الإقدام على تثبيته في حدود ما نعلم، هو أنَّ استعمال اصطلاح المدرسة النحوية لدى الباحثين في تاريخ النحو العربي لم يكن معروفاً قبل غوستاف فلوجل، فهو أوَّل من قعَّدَ لهُ في كتابه «المدارس النحوية عند العرب»

وما يدين به علم النحو لفلوجل ليس تقعيده الممنهج لمصطلح المدرسة النحوية وحسب، بل أكثر من هذا وهو ما قدمه هذا الباحث من كشوفات مدهشة تغلغل فيها في الآفاق الفكرية للثقافة العربية من خلال دراسة اللهجات العربية وما طرأ عليها من تقلّبات تاريخية على مستوى السليقة والذوق وسلامة اللسان، فضلاً عن القدر العلمي الذي لا يستهان به، الذي ساهم فيه في علم الفهرسة وتصنيف المخطوطات الخاصة بالنحو العربي. وتجدر الإشارة هنا الى أن الضعف والتسطيح

والتخبط الذي لحق بحالة الاستشراق بشكل عام في الوقت الحاضر كان قد دبّ دبيبه منذ أن اختزل جمعٌ من الكتاب العرب صورة الاستشراق داخل أطر ضيِّقة بعيدة عن الموضوعية، كخدمة الأهداف التوسعية والإساءة للعقيدة الإسلامية(١١)، وسوى ذلك من القراءات العاطفية المغرضة ذات المقاصد المبيَّتة، التي ظلَّت تتحرك على وتيرة لا مناص لنا لفهمها إلا بالرجوع لما تأسست عليه من أرضيات عقائدية وفكرية، وهذا مما نرجئ البحث فيه الى مقالة أخرى.

إنَّ الدور العلمي الذي لعبته المدرسة الألمانية للاستشراق(١٢) يحفّزنا هنا للَفْتِ النظر لكونها أخرجت علماء بارزين يقف المرء ذاهلاً أمام سعيهم الصادق في طلب علوم وميادين الثقافة العربية، وعمق اشتغالهم في قلعة التراث العربي بوصفها جزءاً لا يتجزَّأ من الثقافة الإنسانية. ومن بين هؤلاء العلماء الذين كرَّسوا حياتهم لدرس المخطوطات العربية، متخطين جلَّ الصعاب غوستاف فلوجل، الذي بقي وفيّاً لخدمة الثقافة العربية وما فتىء ينقِّب تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم سعياً لتيسير سبل فهم الحضارة العربية. ولهذا العالم معرفة وطيدة بنحاة العربية لم يترك متسعاً من الزمن لنسجها في كتابه الشهير «المدارس النحوية عند العرب» وهو كتاب حرص على أن يتقصّى فيه شتى الروايات التي أودعت في المزيات اللهجية وفي تقعيد النحو العربي على مستوى المصطلح، ثمَّ نشأة المدارس النحوية وتفسيرها تاريخياً من منظور لا يخلو من الولوج في المقارنة والنقد.

ما يدين به علم النحو لفلوجل ليس تقعيده الممنهج لمصطلح المدرسة النحوية وحسب، بل أكثر من هذا وهو ما قدمه هذا الباحث من كشوفات مدهشة تغلغل فيها في الآفاق الفكرية للثقافة العربية من خلال دراسة اللهجات العربية وما طرأ عليها من تقلّبات تاريخية على مستوى السليقة والذوق وسلامة اللسان

مقدمة فلوجل لكتاب «المدارس النحوية عند العرب»

إذا ما تجلَّتْ في مكانٍ ما ضرورة علمية للتأسيس وبشكلٍ متأنٍّ لمصنَّفاتٍ خاصة بتاريخ العلوم، وفقاً لطرائقِ التشكّل المورفولوجي للِّسان، فإنَّ هذه الضرورة تبدو ملحة على وجه الخصوص في عملية تدوين الملامح العامة لأطوار ومراحل تاريخ اللغة والآداب العربية، كون هذا التاريخ بحاجة ماسة لخطوات تمهيدية على طريق الدراسات العلمية الجادة والمستفيضة. الأمرُ ذاته ينطبقُ وبالمقدار نفسه على علم اللسانيات العربية، الذي لا مناص من التعمّق فيه وإتقان مفاصله، ما لم يتوفر ما يكفي من المراجع الأصيلة المفردة لدراسة النصوص العربية البارزة، وعلى رأسها القرآن الكريم. من الممكن

طبعاً الميل لصياغة نظرة شاملة موجزة عن الأدب العربي، ولكن هذا النهج يظلُّ في فحواه بعيداً كلَّ البعد عن التوجّه للعناية بكتابة تاريخ الأدب العربي، وفي الوقت ذاته، يكونُ من المتوقع لمن يشتغل على عملٍ كهذا أنْ يدرك، وبعد وقتٍ يسير، أنَّ الخيال والواقعَ أمران مختلفان تماماً.

ثمّة ما يدعونا للاعتقاد بوجوب التمهيد بما تقدَّم من ملحوظة مختصرة عن موضوعة طويلة، للإفصاح عن مبرر الإقدام على كتابة هذا البحث العلمي. هناك جملة من العوامل والدوافع الكامنة وراء وقوع الاختيار على بحث المدارس النحوية، إلا إنَّ السبب المباشر عائدٌ قبل كلِّ شيء لأهمية التصدي لهذه المادة، بوصفها تشتملُ، دون سواها، على أول الأدلة العلمية المقنعة للمظاهر المرحلية لتطور الفكر النحوي في العقل العربي، وما تلاه من نشاط موضوعي مجرّد بذل علماء العربية فيه أيَّما جهد لفهم اللغة العربية والغوص في نحوها، فضلاً عن اعتبار ما شيَّد على مسألة المدارس النحوية من مصنّفات واستنتاجات لغوية بارعة تشكِّل الأوعية الأولى والمصادر الأصلية لمناهج البحث العلمي.

لابد لي أنْ أعترفَ هنا بأنَّ هناك موضوعات أكثر متعة وأثراً، من المادة المبحوثة في هذا المقام، والتي تبدو كما لو أنَّها لا تستحوذ على مقدار من الجاذبية لأنَّها مادة تتأرجحُ في بنيتها بين شدِّة المقولات العقلية وجفاف الصياغات الذهنية؛ ولكنَّه لم يكن على سلَّم الأولويات التعامل مع موضوعات مؤثثة بعناصر المتعة أو التسلية، وإنَّما المهم هو الطموح لإدراك ذلك الاكتمال النسبي لتأليفِ دراسة علمية تتوخى الأصالة والجدّية، إلى حدٍ ما، في تقصِّي المراحل التاريخية لتشكَّل المدارس النحوية، دراسة هي البذرة الأولى من نوعها، التي يفترضُ لها أنْ تدشِّنَ الطريق للسير في هذا المضمار وتضع حجرَ الأساس لنمو بحوث أخرى لاحقة.

إذا نظرتُ لنتيجة البحث بشكل شاملٍ فستبدو أنَّها، وعلى الرغم من أنَّ شكلها النهائي لم يبلغ ذروة ما يتعمَّق أغوار الكاتب من أمانٍ، فإنَّها قدَّمتْ صورة موضوعية وشفافة لواقع النشاط العلمي في الدراسات اللغوية للأدب العربي في القرون الأولى

فإذا ما كنتُ قد نجحتُ في تحقيق الغرض الذي أُلِّف الكتاب من أجله، فهذا مما يجبُ عليَّ ترك الحكم فيه للخبراء في هذا المجال. ومن غير المستبعد أنَّ تبدو الرؤية الإجمالية المقدَّمة هنا أقلّ من مستوى مقاصدها، ولكن حسبنا أنّها رؤية بحثية ستلفتُ النظر لما نحسبه مهمّاً، وخليق بمن يدلف إليها أن يتلمّسَ فيها مادة علمية لا يمكن لبحوث أخرى أن تتخطاها في الوقت الحاضر. وإذا نظرتُ لنتيجة البحث بشكل شاملٍ فستبدو أنَّها، وعلى الرغم من أنَّ شكلها النهائي لم يبلغ ذروة ما يتعمَّق أغوار الكاتب من أمانٍ، فإنَّها قدَّمْت صورة موضوعية وشفافة لواقع النشاط العلمي في الدراسات اللغوية للأدب العربي في القرون

الأولى. هذه الصورة هي أقصى وأدقّ ما يمكن الحصول عليه الآن، لاسيَّما أنَّ الدراسة المقدَّمة في هذا الكتاب رائدة في خوضها في حقلٍ بحثي لم يأخذ قسطه فيما مضى من دراسات، ولذا فهي حصيلة معرفية لم تستند إلى أيِّ دراسة معاصرة سابقة عليها.

إنَّ مخطوطات المصنَّفات والتراجم الثمينة التي تعتبر عيون المصادر العربية قديماً وحديثاً، وهي المتعلقة تحديداً باللغة العربية الفصيحة وآدابها، من قبيل علم النحو وعلوم البلاغة، وهما شقَّان متجاذبان لا يمكن الفصل بينها، وكذلك العلوم الجانبية الأخرى التي تشتمل عليها العربية كعلم العروض، والدراسات المنصبة على تحليل معاني النحو وتطبيقاته العملية في التفسير وغيرها، هي كنوز علمية لا جدال في كونها من أمَّهات المراجع والأصول ولا ينقصها ما يشكِّل ضرورة لإثبات وجودها، لأنها مسندة أو موثَّقة على أقل تقدير، على الرغم من أنَّ الجزء الأكبر من هذهِ النفائس، وهو بالتأكيد ليس الأقل أهميَّة منها، كان إمَّا قد سقطَ ضحية تقادم العهد وعبث التاريخ، أو إنَّه من النادر أن يكون شيءٌ من هذه المخطوطات القديمة، التي تمَّ إنقاذها في المكتبات الأوروبية، قد حظي ببداية موفقة للتحقيق والنشر. ولا وجود لإمكانيةٍ الآن تتيحُ لنا فرصة تصنيف محتوى هذه المخطوطات القيِّمة بالكامل، للفائدة منها وجعلها قابلة للتطبيق العملي في بحوث تاريخ اللغة والآداب. تقتضي الضرورة الآن أنْ تحظى الأصول القديمة بما تستحق من أهمية وأن يُمضَى قُدماً لتحقيق خطوات متقدمة في بحثها والعناية بها، فيما عدا ذلك لا توجد على ما يبدو أيّ وسيلة أخرى آمنة وسليمة علمياً، يمكنها أن تؤدي لما نصبو إليه من وراء تدارس تاريخ النحو العربي واتجاهاته والتنقيب في الهياكل الكبرى لتراجم اللغويين والنحاة. وتجدر الاشارة أيضاً الى أنَّ الحفريات العلمية لأيٍّ من حقول المعرفة، بصرف النظر عن الشعر وعلوم القرآن، والبحث في العادات والتقاليد الاجتماعية، ومذاهب التصوف وربما شيء من الدراسات التاريخية، هي بحوثٌ لا يكادُ يقدَّمُ فيها حالياً أكثرُ مما يحمله هذا الكتاب الأصيل بين دفتيه من مادة علمية رصينة لم ندَّخر وسعاً لجعلها تنبثقُ عن قاعدة لغوية محضة. لاريب في أنَّ هذا الكتاب سيشكِّلُ على أقلِّ تقدير أرضيَّة مهمة وطريقاً يمكن الاطمئنان إليها والاعتماد عليها لتحقيق ما نرومه من فتح لآفاق جديدة تصب في خدمة الدراسات المستقبلية في مضامير اللغة والآداب، لابد لبعضها من أن يثمر

هذا الكتاب سيشكِّلُ على أقلِّ تقدير أرضيَّة مهمة وطريقاً يمكن الاطمئنان إليها والاعتماد عليها لتحقيق ما نرومه من فتح لآفاق جديدة تصب في خدمة الدراسات المستقبلية في مضامير اللغة والآداب، لابد لبعضها من أن يثمر مستفيداً مما غرس بين طيَّات هذا المرجع من بذور أساسية تمس صلب حقل الدراسات اللغوية

مستفيداً مما غرس بين طيَّات هذا المرجع من بذور أساسية تمس صلب حقل الدراسات اللغوية.

قد يبدو من المستعصي الآن وضع غايات أخرى تفوق أو تتقدَّمَ في مستوى عمقها على ما عقدنا النيِّة لتحريره في هذا الكتاب، الذي لا يخرج في النهاية عن كونه محاولة أصيلة لارتياد منطقة جديدة لا تخلو من المغامرة. وهي محاولة لن ولا ينبغي لحيثياتها أن تنجو من النقد، ولكنّنا نتطلَّعُ للمحافظة على هذا البحث والحرص على إبقائه بعيداً عن النقد التعميمي المغلوط والملاحظات غير الناضجة، لأنَّها إمِّا أن تكون سطحية منبثقة عن مواقف شخصية، فلا تنجح في إغناء المادة لكونها لم تتصد لها من الأسس، أو أن تتخذ من المقروء فرصة لاستطرادات تبتعد عن الخوض في لبّ الموضوع ولا تسلّط الضوء على ما اشتمل عليه من مفاصل. تجدر الإشارة هنا الى إنَّه من غير المستبعد أن تكون آفة النقص الكبير الذي يعتري دراسة تاريخ النحو العربي بشكلٍ جامع سبباً في رواج النقد والقراءات غير المختصة، فقد تتبوَّأ مكانة ما على الرغم من كونها عفوية فاقدة للموضوعية ولا تدَّعم ما تذهب إليه بالأدلة والبراهين.

قادت طبيعة البحث إلى أن نستند إلى تقسيمنا للمدارس النحوية الى مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، والمدرسة المختلطة أو الانتقائية، التي قامت على الانتخاب من مدرستي (البصرة والكوفية)، ولابد لي من التأكيد على أنَّه تقسيم واقعي ومناسب موضوعياً، ولا يوجد حتى الآن أيُّ سبب يدعونا لأن نحيد عنه وبناءً على هذا الأساس بدا له هنا ما يبررهُ كلياً.

استدعتنا ضوابط وقواعد منهج هذا الكتاب الذي نعكفُ على وضعه بين يدي الباحثين الى أن نقسمهُ إلى جزأين رئيسيْن يشكِّلُ تاريخ المدارس النحوية الثلاث الجزء الأول منه، فيما سيعالجُ الجزء الثاني[١٣] منه ما انبثق عن هذه المدارس من مدرسة نحوية جامعة تبلور داخلها فهم شامل لكلِّ ما تمخَّض عن هذه المدارس من نتائج علمية معترفٌ بصحتها، ثمَّ أتمَّتها من خلال البحث المستمر في المصادر والمظانّ الحقيقية لعلوم اللغة العربية، وكما وجدناها في أفضل المصنَّفات النحوية المتأخرة. ولم تكتفِ هذه المدرسة الشاملة بالبناء على الأسس العلمية آنفة الذكر وحسب، وإنَّما واصلت الخطى أيضاً لتتبع الأنظار اللغوية والوصول لوضع المصطلحات والتسميات الدقيقة المبتكرة لمختلف الظواهر النحوية.

من غير المستبعد أن تكون آفة النقص الكبير الذي يعتري دراسة تاريخ النحو العربي بشكلٍ جامع سبباً في رواج النقد والقراءات غير المختصة

فيما يخصّ المصادر التي استقيت منها مجمل مادة البحث حتى استوى قائماً، فهي مما حرصنا على أن تكون الإشارة إليه في مكانه إما في الهوامش أو داخل المبحث نفسه. وبصرف النظر عن الكُتَّاب الذين جيءَ على ذكرهم في متون البحث، هناك أيضاً الصفدي

وكتابه (وافي بالوفيات)[١٤] إذ استعان به البحث وكانت فائدته عظيمة الأهمية. ويتعيَّن علي هنا أن أعرّج على كتاب طبقات السيوطي[١٥]: يذكرُ دي سلان[١٦] De Slane في تقريره الذي كتبه العام ١٨٤٥ أثناء مهمته العلمية إلى الجزائر العاصمة، وتحديداً إلى المكتبة المحلية في المدينة، وهو تقريرٌ معنون أصلاً للسيِّد وزير التعليم العام (مارسيليا، ٣١ يوليو ١٨٤٥، صفحة ٢)، يذكرُ فيه أنَّه عثر على «مخطوطة ممتازة للسيوطي تشتمل على معلومات غزيرة عن السير الذاتية لكبار علماء اللغة والنحو العربي». ولم يقدِّم في هذا الموضع من التقرير معلومات أكثر دقة عن هذه المخطوطة، وبالتالي فمن المرجح جداً أنّ يكون دي سلان قد قصدَ هنا كتاب السيوطي «طبقات النحاة». وفي موضعٍ آخرٍ من التقرير نفسه، الذي أدرجَ فيه قائمة بأهمّ المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة المدينة، ذكر في صفحة ١٣ تحت الرقم: ٤٠٩ مخطوطة بعنوان: (سراج الرواة لتراجم اللغويين والنحاة)، ووصفها بقوله: «كتاب نادر ومهم للغاية بالنسبة لتاريخ اللغة العربية وآدابها»، ولكن لا يعرفُ حتى الآن عملٌ للسيوطي تحت ذلك المسمَّى، أو بما يقترب من محتواه، ولم ترد أيُّ إشارة لمخطوطة بهذا العنوان لا لدى حاجي خليفة[١٧]، ولا في الترجمة التي كتبها السيوطي عن نفسه وأحصى فيها ما صنّفه من مؤلفات، وإنَّما يذكرُ وفي غير مرة، عنواناً آخراً هو: (طبقات اللغويين والنحاة)، وهو عنوان المخطوطة المعتمدة لدينا. لم يختلف الباحثون في كون السيوطي بعد أن أتمَّ مصنَّفه الكبير الطبقات عكف من جديد، على وضع ملخَّصه العتيد، الذي جعلهُ تحت عنوان: (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة)[١٨]، ولكنَّ هذا المخطوطة أيضاً، وعلى الرغم من كون عنونتها تقترب في البنية والتشكيل من عنوان مخطوطة المكتبة الجزائرية (سراج الرواة لتراجم اللغويين والنحاة)، إلّا إنَّها هي الأخرى لا تقدَّم الكثير من العون للوقوف على شرح وتوضيح حقيقة تلك المخطوطة التي عثر عليها دي سلان وأدرجها في تقريره، ومن غير المستبعد أن تكون مشتملة على واحدٍ من كتابي السيوطي المشار لهما آنفاً إما «طبقات اللغويين والنحاة» أو «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة». وإنَّ الأقرب الى ظنَّي هو أنَّ المخطوطة الجزائرية هي ذاتها مخطوطة الطبقات، وإنّ سبب تغيّر التسمية عائدٌ على الأرجح لقيام ناسخ ذي علم بمنحها عنوان «سراج الرواة»، ربما رغبة في أن تكون لهذه المخطوطة عنونة مناظرة لعنوان الملخَّص، الذي أفرده السيوطي «بغية الوعاة»،

الأقرب الى ظنَّي هو أنَّ المخطوطة الجزائرية هي ذاتها مخطوطة الطبقات، وإنّ سبب تغيّر التسمية عائدٌ على الأرجح لقيام ناسخ ذي علم بمنحها عنوان «سراج الرواة »، ربما رغبةً في أن تكون لهذه المخطوطة عنونة مناظرة لعنوان الملخَّص، الذي أفرده السيوطي «بغية الوعاة»

وإذا لم يكن ذلك الناسخ هو من صحّف وأضاف، فهذا يعني أنَّ السيوطي نفسه هو من وضع لها هذا العنوان، في وقت لاحق على نشرها، لكي يميِّزها وبدقة عمّا قدَّمه في مصنّفه «بغية الوعاة»، ولذا ظهر هذا العنوان في المخطوطات التي نسخت في وقتٍ متأخر. ولو كان دي سلان اقترب من المخطوطة الجزائرية وتمعَّن بها بأكثر مما فعل، ولاحظ على سبيل المثال بدايتها أو طبيعة الموضوع المبحوث فيها لتبيَّنت له بصورة أكثر وضوحاً وجلاءً، ولتوصل لحكم أدقّ وأوثق. ولن تفوتني مراجعة وتمحيص هذا الأمر في موضعٍ لاحقٍ لتوضيح ما مرَّ ذكره أعلاه.

الجزء الثاني، من هذا الكتاب، والذي بات تحضيراته مكتملة تماماً، سيتبعُ هذا الجزء في أقرب وقت ممكن[١٩].

غوستاف فلوجل

دريسدن Dresden في ٢٤ تموز ١٨٦٢

الهوامش

* أسامة الشحماني أكاديمي ومترجم عراقي متخصص في الأدب الحديث. يعمل في كلية الآداب واللسانيات في جامعة كونستانس في ألمانيا، وفي كلية التدريس والعلوم التربوية في سويسرا. عمل أستاذاً زائراً في معهد الاستشراق في جامعة زيورخ قسم الآداب. حصل على درجة دبلوم العالي في اللغة الألمانية، في معهد غوته الدولي، فرع سويسرا. عضو اتحاد الأدباء العراقيين، والاتحاد الدولي الألماني للمترجمين. من كتبه «الكتابة في مشغل مابعد الحداثة» (٢٠١٣)، «الإسلام: استنتاج وتفسير» (ترجمة ٢٠١٢)، «الشاعر في محطة القطار» (ترجمة ٢٠١٠)، «محمود البريكان، دراسة ومختارات» (٢٠٠٤).

١ ينظر المستشرقون، موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراسات عنهم، دار المعارف، مصر ١٩٦٤، ط٣ مزيدة ومنقحة، ج١، ص ١٣٠، ٦٧٨ بتصرف.

٢ ١٨٠١ – ١٨٨٨ Fleischer، درس في ليبزك Leipzig، وتتلمذ على يد المستشرق الفرنسي الكبير دي ساسي، وعاد إلى ألمانيا حيث عين أستاذاً للغات الشرقية بجامعة درسدن، حيث وضع فهرسة مهمة لما تحتويه مكتبتها من مخطوطات شرقية ذيّله بفهرسة تفصيلية تشتمل على عناوين المخطوطات وأسماء مؤلّفيها والاعلام الجغرافية فيها. ثم أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة ليبزك. أسس الجمعية الشرقية الألمانية (١٨٤٤) التي أشرفت على طبع عدد من عيون الكتب العربية. نشر (تفسير البيضاوي)، كما نشر القسم الخاص بتاريخ العرب قبل الإسلام من (تاريخ إبي الفداء) مع ترجمة لاتينية. وأتم نشر نسخة (ألف ليلة وليلة) التي بدأها ماكسيميليان هابخت Christian Maximilian Habicht ١٧٧٥ – ١٨٣٩. المترجم.

3 Die grammatischen Schulen der Araber, Gustav Leberecht Flügel, Leipzig1862, In Commission bei F. A. Brockhaus.

٤ للاستزادة في تفصيلات السيرة الذاتية لغوستاف فلوجل ينظر المستشرقون، ج٢، ص ٧٠١-٧٠٢. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٣، ط ٣ جديدة ومنقحة ومزيدة، ص٤١١-٤١٣.

Fück, Johann W. „Flügel, Gustav Leberecht“, in: Neue Deutsche Biographie (1961), S. 260.

5 Concordantiae Corani arabicae (Leipzig, 1842 und erneut 1898).

٦ موسوعة المستشرقين، ص ٤١٢.

٧ من مقالة للكاتب تحت عنوان» نجوم الفرقان في أطراف القرآن» منشورة في جريدة السبيل الأردنية في عددها الصادر الجمعة، ١٩ آب ٢٠١١.

٨ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٤، كلمة واضع المعجم.

٩ ينظر المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، دار الأمل، الأردن، ط٣ منقحة ومزيدة، ٢٠٠١، ص١٣.

١٠ المدارس النحوية اسطورة وواقع، دار الفكر، عمّان، ط١، ١٩٧٨، ص ١٢.

١١ ومن ذلك على سبيل المثال التعريف الذي قدّمه أحمد غراب في كتابه رؤية إسلامية للاستشراق حيث قال «الاستشراق هو دراسات للإسلام والمسلمين يقوم بها الكفار في جوانبٍ مختلفة: عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخاً، ونظماً، وثروات وإمكانات، وهدفها هو تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي»، ينظر كتابه، ص ٧ بتصرف.

١٢ للاستزادة في موضوعة المدرسة الألمانية في الاستشراق ينظر: المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨. المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، رودي بارت، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧. الاستشراق الألماني، تاريخه وواقعه و توجهاته المستقبلية، دراسات مختارة جمعها و نقلها من الألمانية إلى العربية أحمد محمود هويدي، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠, ١.

١٣ لم نعثر على ما أشار له فلوجل من جزء ثان مكمِّل لهذا الكتاب ضمن المؤلفات المطبوعة التي تركها هذا المؤلف، وأغلب الظنّ أن هذا الجزء بقي مخطوطة لمّا تنلْ حظّها في النشر. المترجم

١٤ هكذا ورد عنوان الكتاب في مقدمة المؤلف، والصحيح هو: كتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل الصفدي. المترجم.

١٥ المقصود هو كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، لجلال الدين السيوطي. المترجم.

١٦ البارُون دي سْلان William Mac Guckin, baron de Slane ١٨٠١ – ١٨٧٩ أحد كبار المستشرقين الفرنسيين، ترك آثاراً مهمة في تحقيق المخطوطات العربية منها: ديوان امرئ القيس، وتاريخ ابن خلدون، والمغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، لأبي عبيد البكري، ومنتخبات من تاريخ مصر لابن ميسر، مع ترجمة فرنسية، فضلاً عن إتمامه لترجمة مقدمة ابن خلدون، وإعداده لفهرس المخطوطات العربية في المكتبة الأهلية بباريس. للاستزادة ينظر أعلام الزركلي، مادة: البارُون دي سْلان. المترجم.

١٧ حاجي خليفة (١٦٠٩ – ١٦٥٧)، جغرافي ومؤرخ تركي، والإشارة هي لمعجمه الببليوغرافي الكبير: (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، وهو موسوعة مهمة رصد حاجي خليفة فيها ما يقارب ثمانية عشر ألف عنوان من كتب التراث العربي. وقد قام فلوجل بتحقيق ونشر كتاب (كشف الظنون) وقدَّمه مع ترجمة لاتينية وفهارس وملاحق في سبعة مجلدات ضخمة، قضى فيها قرابة ثلاثة عشر عاماً. المترجم.

١٨ يشير المحقق محمد فضل ابراهيم في مقدمته لكتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» الى أن العالم السيوطي أودع هذا الكتاب صفوة جميع الكتب التي سبقته في هذا الشأن، وزاد عليها ما انتقاه من كتب الأدب والتاريخ والتراجم ومعاجم الشيوخ والتذكرات ومقدمات الكتب. وأصل الكتاب على ما بينه السيوطي «مجموعة كبيرة أودع فيها جميع ما في كتب الأدب والتاريخ من ترجمة نحوي طالت أو قصرت، خفيت أخباره أو اشتهرت، أورد فيه فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ومرويّاتهم ومفرداتهم ما لم يجتمع في كتاب، بحيث بلغت المسودة سبع مجلدات» قال: «فلما حللتُ بمكة المشرفة سنة تسع وتسعين وقفت عليها صديقنا الحافظ نجم الدين بن فهد، فأشار عليَّ أن أُلخِّص منها طبقات في مجلَّد، فحمدتُ رأيه ولخَّصت منها اللباب في هذا الكتاب». ينظر مقدمة كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩، ص٧–٨، بتصرّف. المترجم.

١٩ في هذا الموضع يختم الكاتب مقدمته بالتنبيه لمّا ورد في الكتاب من أخطاء مطبعية (سبعة أخطاء)، مشيراً إليها بالصفحة والسطر ثمَّ الكلمة وتصحيحها، ولم نقم بترجمة ما ورد في هذه الفقرة القصيرة الى العربية لكونها لا تقدم للقارئ العربي ما يمكن الإفادة منه. المترجم.